٦٣ أبو القاسم الطهطاوى وعلوم الظاهر والباطن

للعلم بالشئ أساليب وطرق، فهناك العلم بالنقل، وهو العلم المعروف. ويتأتى للمرء بالرجوع إلى معارف من سبقوه.. ينقل منها ما شاء له النقل، شريطة أن يرجع المصادر إلى أصحابها.

وهذا العلم ينشأ من كون المعرفة تراكمية، بمعنى أن معارفنا كخَلَف مستقاة من معارف السابقين علينا من السَّلَف، وبهذا يتوارث العلم الخلف عن السلف، ولا يمنع هذا النقل عن السلف، من إضافات للخلف. يضيفونها إلى ما تركه السابقون، كل حسب جهده وتفكيره ورؤيته لما بين يديه من مادة علمية تركها السابقون، وبهذا تتراكم المعارف الإنسانية جيلاً بعد جيل، فى تسلسل يحفظ لكل حقوقه فيما أضاف، وليس هناك إنسان لا يعتمد على معارف مَنْ سبقوه إلا آدم عليه السلام، حيث لم يسبقه بشر ينقل عنه المعارف العلمية.

وهناك العلم بالعقل وهذا يعتمد على العلم بالنقل، فيتأمل المرء ما تركه السابقون ويتدبره، ويحلله، وينتهى إلى نتائج تختلف عمَّا سبقوه، ويكون ذلك بإعمال عقله، وهو بذلك يرتقى بعلم السابقين ويطوره ويُضْفِى عليه من ذاته أحكاماً ونتائجَ جديدة، طبقاً لخطوات علمية مشروعة، يقرها العقل الإنسانى.

وهذا العلم مشروع حتى فى تفكيرنا الإسلامى، ذلك لأنه يعتمد أساساً على العقل وتفكيره، والتفكير فريضة من فرائض الإسلام، به أمرنا الله عز وجل فى آيات كثيرة تدعو إلى إعمال العقل وتدبيره، حتى فى شأن التعرف على الله عز وجل والإيمان به، فلم يقدم ذاته سبحانه وتعالى فى ألغاز وأساطير، وإنما قدمها فى تأمل صُنعه فى خلقه وتدبر ذلك، ولعل هذا هو الإيمان الذى يُطلب من

المسلم أن يهتدى إلى الله بعقله وتفكيره، لا أن يكون الإيمان تلقيناً بغير علم أووعى أو فهم. ولهذا يقولون: إن عبادة العالم خير وأنفع من عبادة الجاهل. إذ أن الأول يعمل تفكيره، وإذا اهتدى فإنه يهتدى عن اقتناع لا يُداخله شك أو ريبة.

كذلك هناك العلم عن طريق القلب وشفافيته، وهو لا يتأتى بالدرس على الآخرين، أو النقل عنهم، وإنما يهبه الله عز وجل فى قلب مَنْ يشاء من عباده، ولعل هذا هو أعلى مراتب العلم، لأنه هبة إلهية للذين يستحقونها من عباده، هؤلاء الذين أخلصوا لله عز وجل، ولم يشغلهم عنه سبحانه أى من شواغل الحياة الدنيا، وانصرفوا عن الدنيا وزهدوا فيها. وهذا النوع من العلم لا يتأتى إلا للأولياء الصالحين الذين لا خَوَفٌ عليهم ولا هم يحزنون. وأكبر مثل على ذلك هو الخضر عليه السلام. الذى يعلم علماً وهبه له الله عز وجل فى قلبه دون غيره.

وطبيعى أن يكون لهذا العلم درجات حسب قرب العبد من ربه عز وجل.

ويبدو أن علم الشيخ الصالح أبى القاسم الطهطاوى من هذا النوع الأخير، وإلا فما معنى أن يذكر عنه مؤرخوه ـ وفى مقدمتهم أحمد رافع الطهطاوى ـ فى كتابه الثغر الباسم فى مناقب سيدى أبى القاسم» ومحمد عبده الحجاجى فى كتابه «شخصيات صوفية فى صعيد مصر فى العصر الإسلامى» بأنه لم يتلقَ درساً ولاعلماً من أحد، وأنه لم يجلس حول عالم أو فقيه يأخذ على يديه علوم العقيدة والدين، ولكنه استهل حياته سائحاً هائماً فى الجبل المقابل للبلدة التى اختارها مستقراً له ـ «طهطا» ـ والمعروف بجبل «الساهرة»، والذى يقع فى الجانب الشرقى من هذه المدينة.. وأنه كان يستمر فى سياحاته الروحية شهوراً طوالاً، لا يأكل إلاَّ من عشب الأرض، وينتقل من مكان إلى مكان، متدبراً فى صُنع الله، ولا يفتر لسانه عن ذكره، حتى يقول كل من أحمد رافع والحجاجى: «وذات يوم حينما فرغ من صلاته وجد شخصاً واقفاً خلفه ومعه طعام فقدمه إليه وقال له: «كُلْ وارجع إلى بلدك. فقد أذن لك فى الأكل، وحان وقتك. فقال له أبو القاسم: من أنت؟ فقال له الرجل: أنا أخوك الخضر» فأكل، وشرب من تلك العين التى كانت بجواره، ومن ثم بدأت شهرته تتسع، وبدأ نجمه يتألق كعَلَمٍ مَنْ أعلام التصوف الإسلامى فى القرن الثامن الهجرى. وقد أيده الله سبحانه وتعالى بالكرامات، وأجرى على لسانه الحكم ونوابغ الكلم، ورفع له المكانة بين الخلق،

وملأ الصدور من هيبته ووقاره. . . فقصده الناس من مختلف مدن الصعيد للتبرك به، ومن ناحية ثانية كان رضى الله عنه لا يستقر فى مكان أو بلد، حيث كان يتجول ويسبح فى مختلف مدن الصعيد، وخاصة قنا التى كان يزورها بإستمرار، حيث يوجد قبر أستاذه عبد الرحيم القنائى.

ويذكر مؤرخو هذا الشيخ الصالح أنه تعرض للكثير من الأفكار من علماء عصره، ومن جمله ما يقوله عنه الإمام العالم المعنى شمس الدين الراعى: «. . .وقد حضر إليه جماعة من أكابر علماء مصر، من جملتهم الإمام المفتى، أحد المجددين فى المائة الثامنة للهجرة سراج الدين البلقينى يقصد السلام عليه، واختبار حاله، وأضمر كل من الحاضرين حاجة فى نفسه، فتحدثوا معه، ثم سألوه عن علوم كثيرة وهو يجيبهم عنها، ثم سكتوا. فتكلم أبو القاسم الطهطاوى بكلام عظيم لم يفهم منه الحاضرون إلا اليسير، فنظروا بعضهم إلى بعض كالمنكرين عليه فى هذا العلم. فنظر هو إليهم وأنشد قائلا:

وما علمنا نقل ولا بدراسة ولكن به الأنوار ضاءت من القلب

فقاموا جميعاً احتراما له، وسألوه الدعاء فدعا لهم، وكاشف لكل منهم ماأضمره فى نفسه. . .».

وقد عاش هذا الشيخ الصالح ـ كما يذكر مؤرخه أحمد رافع ـ حياة لا تعرف الفتور أو الكسل، بل كان دائماً يسعى إلى بناء الفرد الصالح المؤمن بالله حق الإيمان، حتى توفى فى مستهل المحرم من عام ٧٦٢ فى عصر السلطان المملوكى قلاوون عن عمر يناهز التسعين عاماً. ليدفن فى زاوية أنشأها فى حياته بمدينة طهطا التى نُسبَ إليها، وصار له فيها ولد كثير، من بينهم رائد النهضة الفكرية فى العصر الحديثَ رفاعة رافع الطهطاوى أحد أحفاد أحفاده.

ولم يترك هذا الشيخ الصالح آثاراً علمية مكتوبة، اللهم إلاَّ أقواله وحكمه التى استقرت فى قلوب تلاميذه ومريديه على مر السنين. ومن بين هذه الأقوال أقواله فى علوم الطريق، والتى تدل على قدمه الراسخة فى ميدان التصوف وكذلك حكمه التى يقول عنها بأنها تنطق على قلوب العارفين بلسان التصديق، وفى قلوب العباد بلسان التوفيق، وفى قلوب الموحدين بلسان التذكير، وفى قلوب المحبين بلسان الشوق. .».

* * *